

“ عَظْمَةُ الْإِنْسَانِ فِي تَوَاضُعِهِ ”

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ عِبَادَ اللَّهِ !

إِنَّمَا نَحْنُ الْمُؤْمِنُونَ قَدْ تَعَلَّمْنَا التَّوَاضُعَ مِنْ رَسُولِنَا الْأَكْرَمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَقَدْ عَاشَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَيَاةً تَتَّسِمُ بِالْبَسَاطَةِ. i وَكَانَ يُجِلُّ وَيُقَدِّرُ الْإِنْسَانَ لِأَنَّهُ إِنْسَانٌ. كَمَا وَأَخْبَرَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ التَّوَاضُعَ هُوَ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ أَهْلِ الْجَنَّةِ. iii وَقَدْ ذَكَرْنَا كَذَلِكَ بَإَنَّ اخْتِقَارَ الْمُسْلِمِ لِأَخِيهِ الْمُسْلِمِ هُوَ إِثْمٌ كَافٍ بِذَاتِهِ. iii كَمَا أَنَّ رَسُولَنَا الْأَكْرَمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخْبَرَنَا بِأَنَّ التَّوَاضُعَ هُوَ صِفَةٌ مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تُجَلَّ وَتُعْظَمَ قَدْرٌ صَاحِبِهَا عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَدُّ يَقُولُ فِي الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ:

"... وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ." iv

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ الْأَعْرَاءُ!

إِنَّ غَايَةَ الْإِسْلَامِ تَكْمُنُ فِي زَرْعِ التَّوَاضُعِ فِي نَفْسِ الْإِنْسَانِ مِنْ جَانِبٍ وَإِعَادِهِ قَدْرَ الْإِمْكَانِ عَنِ الْكِبَرِ وَالِاسْتِعْلَاءِ مِنْ جَانِبٍ آخَرَ. لِأَنَّ الْكِبَرَ كَمَا عَبَّرَ عَنْهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَوْلِهِ " الْكِبْرُ بَطْرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ." v

إِنَّ الشَّخْصَ الْمُتَكَبِّرَ يَظُنُّ أَنَّ الدُّنْيَا مَا خُلِقَتْ إِلَّا مِنْ أَجْلِهِ وَحُدَّهُ. فَيَشْبِيحُ بِوَجْهِهِ عَنِ النَّاسِ مُخْتَقِرًا لَهُمْ. بَيِّنٌ أَنَّ الْمُؤْمِنَ يَجِبُ أَلَّا يَحْتَقِرَ أَيَّ أَحَدٍ مَهْمَا كَانَتْ الْأَسْبَابُ. وَقَدْ حَدَرْنَا رَسُولَنَا الْأَكْرَمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِهَذَا الْأَمْرِ بِقَوْلِهِ: " إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضِعُوا، حَتَّى لَا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ." vi

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ الْكِرَامُ!

لِنَعْمَلْ عَلَى أَنْ نَمْلَأَ جَمِيعَ نَوَاجِي حَيَاتِنَا بِالتَّوَاضُعِ. وَلِنُحْرَصَ عَلَى أَلَّا نَجْرَحَ أَحَدًا أَوْ نُؤْذِيَهُ. وَلِنُحْرَصَ أَيْضًا عَلَى أَلَّا نَتَّخِذَ بِمَلَذَاتِ هَذِهِ الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ فَنُحْزَنَ بَعْضَنَا الْبَعْضَ. وَلِنَتَّبِعَ عَنِ الْكِبَرِ وَالْعُرُورِ وَالتَّبَاهِي الَّذِي مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُحَوَّلَ دُنْيَانَا إِلَى سَجْنٍ وَأَخْرَتَنَا إِلَى جَحِيمٍ. وَلِنُحْرَصَ كَذَلِكَ عَلَى أَلَّا نَحْتَقِرَ النَّاسَ وَنَتَّجِهَ فِي وُجُوهِهِمْ. وَلَا نَمْشِي فِي الْأَرْضِ مَرَحًا بِكِبَرٍ وَاسْتِعْلَاءٍ. لِقَوْلِهِ تَعَالَى: [وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا] وَلَا نَنْسَى أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يُجِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ.

i صحيح مسلم، كتاب الزُّهْد، 33.
iii صحيح البخاري، كتاب الأدب، 61.
iii صحيح مسلم، كتاب البر، 32.
iv صحيح مسلم، كتاب البر، 69.
v صحيح مسلم، كتاب الإيمان، 147.
vi صحيح مسلم، كتاب الجنة، 64.